. . . . . وماذا بشأن الضحايا؟

هذا كتاب وحيد الجانب. يقوم محوره الرئيس على الأسرار البنّاءة وعلى توقعات حملة الأسرار. في قسم كبير منه يدلي أشخاص بكلمتهم، أولئك الذين يكتمون أسراراً ويعدونها مهمة بالنسبة لهم بحيث يبرر لهم إخفاؤها حتى عن أشخاص يؤدون دوراً مهماً في حياتهم. وكلهم يتفقون مع الرجل الذي يقول: «لدي شيء يخصني وحدي 100% وذو أهمية كبيرة بالنسبة لي».

لكن ماذا بشأن الآخرين؟ ماذا بشأن الأشخاص الذين اطلعوا ذات يوم على سر شخص مهم بالنسبة لهم؟ ماذا بشأن أولئك الذين يعرفون أن هناك سراً ولا سبيل لهم للوصول إليه؟ ماذا بشأن أولئك الذين يُفرض عليهم سر لا علاقة لهم به؟ قلما تم التطرق إلى الذين يعانون أسرار الآخرين. لم يرد ذكر لمنظور الضحية -بحكم الموضوع المطروح على بساط البحث- إلا لماماً. وقد تصعب مطالعة الكتاب على بعض المعنيين بهذا الأمر الذين لا يبدون التفهم الكافي لمقولة أن الأسرار ضرورة حياتية، لكل واحد منا.

obeikan.com

فضحايا الأسرار لا يمكن أن يكسبوا جانباً إيجابياً، بل يشعرون بالتأكيد بالغضب والسخط عندما يقرؤون شروحات تبدو لهم وكأنها تبرير لسلوك غير أخلاقي.

- من يشعر بالخذلان وكسر الخاطر عبر سر يتعلق بإنسان آخر، لن يسمح للآخر بحق الكذب.
- من يشعر بأنه تعرض للخداع سوف لن يكون قادراً على استيعاب بأن الشريك قد لا يكون قادراً على التنفس في حياته الأولى، مما دفعه إلى البدء بحياة ثانية.
- من يكتشف فجأة جوانب غير معروفة لديه بعد من حياة محبوبه لن تكون لديه القدرة على الاقتناع بأن كتمان ذلك كان أمراً ضرورياً من أجل التطور النفسي للآخر.
- من كان ضحية سر سيكون من السخرية أن يرى فيه شيئاً إيجابياً؛ إذ لا يمكن أن يجلب لحياته سوى الضرر.

عندما يعثر المرء على سر إنسان قريب منه وعليه أن يقرر بأن الآخر ليس ذلك الشخص الذي عرفه لسنوات طويلة، يفقد المرء عند ذلك استقراره. فإنسان يمر بحالة يدرك فيها أن إنساناً آخر قريباً منه، يعيش أو عاش في عالم سري، لا بدّ أن يشعر بالجرح والألم في أعماقه.

«لقد ألقي بنا مدة طويلة إلى نتوء صخري بارز في البرية في العراء، إلى ظلام مزقته جدران اللهب وهدمته جدران المطر. إلى عالم لم تعد فيه رابطة دم ولا أسماء ولا حب أو عطف. أقرب إلى انعدام السلوك القويم. » هكذا تصف الشاعرة أدرينه ريش الحالة الشعورية عند إنسان

شعر أنه تعرض للخداع والكذب. في حالة استثنائية كهذه لا يعود المرء يفهم العالم، ولا يدري ما هي الثقة أصلاً، ولمن يمكن أن يظهرها -هذا إن أظهرها- في المستقبل. ولأنه أُسيء استخدام هذه الثقة، فهل يمكن للمرء أن يثق مرة أخرى بشعوره الفطري؟ وهل بإمكانه أن يثق بإنسان آخر بلا تحفّظ؟

عندما نكتشف سر إنسان آخر فإن ذلك لا يكشف لنا فقط أننا لا نعرف هذا الآخر بالقدر الذي كنا حتى هذه اللحظة نعتقده، بل يكشف لنا أيضاً -كما يكتب أستاذ الفلسفة هاري . ج. فرانكفورت- «بأن جوهرنا لا يمكن الثقة به لأنه جعلنا نثق بشخص ما كان يجب أن نمنحه ثقتنا. يكشف لنا بأننا لا نستطيع أن نثق بقدرتنا على تمييز الصدق من غير الصدق. أو بعبارة أخرى، بقدرتنا على إدراك الفرق بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي. فعندما ينجح أحد في خداع صديق فإن ذلك يتضمن بالطبع نقصاً عند من كذب، ولكن يكتشف الوقت نفسه بأن شيئاً ما ينقص من وقع ضحية الخداع. إن الكذاب يخونه لكن مشاعره أيضاً تخونه».

إذاً فلاكتشاف السر ضرر مزدوج: إنه يهز الثقة التي يضعها المرء في إنسان آخر. ويهز أيضاً الثقة لتي وضعها المرء في نفسه. فمن يوقظه من غفوته سر يتعلق بإنسان آخر يفقد اتزانه النفسي. يقول الفيلسوف فريدريش نيتشه «لم أهتز لأنك خدعتني، بل لأنني لم أعد أثق بك».

واكتشاف أن شخصاً مهماً قريباً مني له حياته الخاصة التي ظلت خافية عني مدة طويلة، تزلزل الأرض التي كنت أعتقد أنني أقف عليها بثبات. فالآلام الناجمة عن ذلك رهيبة. وهذا ما يتجلى عندما يكون السر

المكشوف من النوع الهدام، بل كذلك أيضاً حتى عندما لا يدخل هذا السر في عداد الأسرار القاتمة.

وبغض النظر عن الأسرار «الحلوة» فإن كل معلومة محجوبة تثير الحيرة والاضطراب عندما تُكتشف.

أصلاً يجب الانطلاق من أن ذلك الذي يُصدم بسر يجب في كل الأحوال أن ينظر إليه أول الأمر بأنه هدام وضار؛ لأنه يصعب على المخدوع من دون شك تحمّل الاضطراب العميق والمعرفة المرة بأنه تعرض للخداع. لكن حتى عندما لا يعجب مضمون السر المعنيين به، إلا أن السر بحد ذاته ليس بالضرورة أن يكون يستحق اللعنة.

درجة الإساءة: هل هي وجهة نظر؟

ليس سبب الإساءة المقترنة باكتشاف سر فقط عبر حقيقة أن الآخر قد أخفى شيئاً مهماً عنا. فربما كان الموقف الذي نتخذه على نحو عام من الأسرار سبباً لجزء كبير من الجراح. ومن ينطلق أساساً من أن الكتمان أمر مستنكر وأن لاحق للكذب وإخفاء الحقيقة بالوجود على الإطلاق في حياة إنسان، فإنه يهتز في أعماقه عند اكتشافه لسر، أكثر من إنسان يقر ببداهة أن يكون للآخرين حياتهم الخاصة. ومن يعتقد أن الثقة بين الناس لا يمكن أن تقوم إلا عندما يعرف المرء دائماً ماذا يفكر به الآخر، أو ماذا يدور في ذهنه، فإنه يتردى وينهار عندما يصطدم بسر.

ألا تقوم الثقة حقاً إلا عندما يعرف المرء كل شيء عن الآخر؟ ألا يمكن أن تقوم الثقة بإنسان يبقى على مسافة معينة غريباً عنا بعض

الشيء؟ وكما بدا لنا في الموضوعات التي تطرق إليها هذا الكتاب، يمكن للاعتراف بالتفرد والإقرار بالزوايا السرية في العلاقات، حتى وقبل كل شيء في علاقات الحب، أن يكون عاملاً مهماً من العوامل التي تربط بين الطرفين. هكذا كان رأي شكسبير أيضاً الذي دعا إلى الكذب في الحب في إحدى قصائده الغنائية، إذ يقول:

لو أقسمتْ بأنها الحقيقة ذاتها
لصدقتها، بالرغم من معرفتي بأنها تكذب
لكي ترى فيّ شاباً فتياً
لا ثقة له بحيل العالم
بحيث أظن أنها تراني شاباً
أما مدى حسن إدراكها لما خلفته ورائي
فيظهر من فلتات لسانها
وهكذا تعاني الحقيقة المراوغة كلا الجانبين
لماذا تخفي إذاً أنها تكذب؟
ولِمَ لا أقول أنني لم أعد شاباً؟
إن أجمل شيء في الحب هو الثقة الخادعة
والحب لا يعرف عدد السنين
لهذا أكذب عليها وتكذب عليّ أيضاً
وبالكذب نداهن خطأنا

هناك طبعاً أسوأ من عدم مصارحة الشريك بالعمر الحقيقي. لكن «الثقة الخادعة» التي يقول عنها شكسبير إنها «أجمل شيء في الحب»

يمكن أيضاً أن تكون الخيار الأفضل من الحقيقة المطلقة، عندما يتعلق الأمر بقضايا أكثر جدية.

من كان قادراً على الثقة بالآخر لدرجة لا يطلب فيها معرفة كل شيء عنه، لن يهتز من أعماقه عندما يكتشف سراً من أسرار هذا الآخر. فإن كانت لديه منذ البداية «ثقة خادعة» ربما وفرت له هذه الثقة مجالاً حراً لينظر منه بعيون أخرى إلى سر مؤلم له وصعب (كخيانة زوجية مثلاً) بعد الصدمة الأولى. إنه لن يشعر بأنه خُدع وأصيب في كرامته كما يشعر شخص آخر يرى في الحقيقة المطلقة شرطاً لا بد منه في العلاقة. ومن ينطلق أساساً من فكرة أنه لن يعرف الآخر على حقيقته أبداً، فإنه ربما يواجه الأسرار التي أميط اللثام عنها بصورة أكثر هدوءاً وصبراً. وهذا بدوره يمكن أن يساعد على ألا يجعل من سر الشريك مسماراً في نعش علاقتهما.

لكن من الطبيعي أن تكون هناك حدود يجب على حامل السر أن يتوقف عندها. فالاستعداد لوضع الثقة بالآخر، حتى لو أنه لا يعلم كل شيء عنه، لا يمكن تبريره عندما يعلم كل المشاركين بالسر بأن الحياة السرية لن تنجلي.

يجب على من يكتم سراً أن يتعامل معه بوعي للمسؤولية وأخلاقية (حتى ولو لم يكن ذلك بالمفهوم التقليدي للأخلاق). فالأمر الذي أطلقه الفيلسوف «كانت»: «ليكن تصرفك فقط حسب المبدأ الذي يمكن في الوقت نفسه أن ترغب عبره أن يكون قانوناً عاماً» أو لنقل ذلك على نحو أبسط: «لا تتصرف مع الآخرين إلا كما تحب أن يتصرفوا معك». يجب أن يكون مبدأً لحملة الأسرار أيضاً. فمن يطالب لنفسه بحق أن تكون له

أسراره عليه أيضاً، وعلى نحو بديهي، أن يقر للآخرين بهذا الحق. وعليه أن يحترم حق الآخر بالتحكم بمصيره وإخفاء الأمور التي لها أهمية حيوية على نمط الحياة التي اختارها، إلى الأبد.

ومن يصر على البقاء مؤيداً بشكل عنيف للصدق، رغم جميع الحجج التي سقناها لصالح الأسرار «الجيدة»، عليه أن يضع دائماً نصب عينيه بأن موضوع الصدق ليس بالأمر السهل. وكما مر معنا في فصل «هل عليك ألا تكذب - أو أن تكذب؟» يمكن للحقيقة أحياناً أن تكون أشد إيلاماً من الكذب.

ما هي الحقيقة إذاً؟ «الحقيقة هي. . . عملية تطور» كما تقول عالمة النفس «هاريت ليرنر»: «الحقائق لا تقال، بل تنشأ مع مرور الزمن وتتنوع. تشبه الاستقامة سباق المسافات الطويلة، تتطلب الكثير من القدرة على التحمل». ولا يقتصر الأمر على ذلك فقط. فمن يريد أن يكون مستقيماً يجب أن يطور «حكمة وحدساً» ليعلم متى يُستخدم الصدق ومتى يُفضل الصمت. من هذه النظرة يمكن أن تكون هناك حقائق بين الناس (ودون ذلك لا وجود للحقيقة) وفي الوقت نفسه أيضاً أسرار. ومن الأسرار يمكنهم أيضاً أن يخلقوا حقائق جديدة.

لقد كانت «أدرينه ريش»، وهي مدافعة أصلاً عن الحقيقة، من الذكاء بحيث اعترفت للسر بمكان في عملية الحقيقة عندما تقول: «أثق بأنك ستقول لي أشياء تهمني معرفتها، وأنك لن تخفي عني حقائق لتوفر عليّ، بل حتى عليك، آلاماً، أو أنك ستقول على الأقل: «هناك أشياء لن أقولها لكِ».